﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥﴾ [الحجر: 5]

## ۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين كون هلاك الأمم بقدر معلوم، وأنّ الأجل لا سبق فيه ولا تأخير

لَمّا بَيَّنَ اللّه سبحانه أنَّ الأمم المهلكة؛ كان لكل منهم وقت معيَّن لهلاكهم، وأنَّه لم يكن هَلاكُهُمْ إلّا حسبما كان مكتوبًا في اللَّوح المحفوظ؛ بَيَّنَ جلَّ شأنُه أنَّ كلَّ أمَّةٍ من الأمم منهم ومن غيرِهم لهم أجلٌ لا يمكن التَّقدُّم عليه ولا التأخر عنه، فجاءت هذه الآية[1].

وأيضًا لَمّا قال اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾؛ بَيَّنَ فائدة التقدير والتَّحديد بأنَّه عدمُ المجاوزة بدءًا ونهايةً.

## ۞ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسۡبِقُ﴾: يدور معنى السَّبق على تقدُّم الشَّيءِ من بين ما حوله في قوة وجدٍّ، يُقالُ: سَبَقَ يَسْبِقُ سبقًا، والسَّبْقُ: التقدُّم في السَّير، وكلُّ شيءٍ تقدَّم؛ فقد سبق، فيأتي بمعنى الإفلاتِ أو المضيِّ في السَّير، ومعْنَى ﴿تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾: تَتَقَدَّمُهُ، وتَفوتُهُ، أيْ: تُعْدَمُ قبلَ حُلولِهِ[2].

2) ﴿أَجَلَهَا﴾: أصلُ الأجَلِ: غايَةُ الوقْتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ وغيرِه، ويُقالُ للمُدَّةِ المضروبة لحياة الإنسان أجَلٌ، فيُقال: دنا أجلُه، عِبارة عن دنوِّ الموت[3]. وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨﴾ [الرعد: 38]، أيْ: تَعْيينٌ وتَحديدٌ لا يَتَقَدَّمُهُ، ولا يَتأَخَّرُ عنه، وقَولُهُم: (أجَلْ) في الجوابِ، هو مِنْ هذا البابِ، كأنَّهُ يُريدُ انتهَى، وبَلَغَ الغايَةَ[4]. والمقصودُ بالأجَلِ في الآية: الوقتُ الـمُوقَّتُ بِهِ عَمَلٌ مَعْزومٌ أو مَوْعودٌ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/65.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سبق).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أجل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).

3) ﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾: أصْلُ التَّأخير: فِعْلُ الشَّيْءِ آخِرًا بَعْدَ أجَلِه، والتَّأخير: التَأجيل، يُقالُ: أخَّرَ الشَّيْءَ يُؤَخِّرُه، أيْ: أجَّلَهُ، وضِدُّ التَّأخيرِ: التَّقْديمُ والتَّعْجيل، ويُطْلَقُ التَّأْخيرُ أيْضًا بِمَعْنَى: تَفْويتِ الشَّيْءِ وتضييعه، يُقالُ: أخَّرَ سَفَرَهُ، أيْ: فَوَّتَهُ، ولَمْ يَأْتِ بِهِ في وقْتِه، والتَّأَخُّرُ: التَّخَلُّفُ سواءٌ كانَ في المَكانِ أم الزَّمانِ، يُقالُ: تَأخَّرَ عَنْ عَمَلِه، أيْ: تَخَلَّفَ عَنْهُ، وتَأخَّرَ عَنْ مُنافِسِه؛ إذا جاءَ بَعْدَهُ في المَكانِ أو الزَّمانِ[1]. والمراد بالِاسْتِئْخارِ في الآية: المُبالَغَةُ في التَّأخُّرِ، فالسّينُ والتّاءُ للتَّأكيد[2].

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في الآية بيانُ مظهرٍ من مظاهر قُدرة اللّه تعالى وإحكامه لشؤون خلقه، وهو ألّا يتقدَّمَ هلاكُ أمَّةٍ قبلَ الوَقتِ الَّذي قدَّرَهُ اللّهُ لهلاكِها، ولا يستأخِرُ، فيتجاوَزُ الوقتَ المحدَّدَ له؛ بل الكلُّ نهلكه، ونُميته في الوقت الَّذي حدَّدناه بقدرتنا وحكمتنا[3].

لا يغرَّنَّهم تخلُّفُ العذاب عنهم، فإنّ أجَلهم آتٍ لا يسبقونه ولا يتأخّرون عنه

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### سبب إيثار الفصلِ في الآية:

لم يُعطَفْ قولُه: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ على ما قبله؛ لكونه موضِّحًا ومبيِّنًا من حيث إنَّ إهلاكَ أيِّ قريةٍ لَمّا كان له كتاب معلوم محدَّد مؤقَّتٌ؛ أفاد أنَّهم لا يسبقون أجلهم، ولا يستأخرون، وفي الجملة معنى التَّأكيد والتَّقرير كذلك لما قبلها، فناسب عدم العطف.

تقرير أنّ آجال الأمم، محدودة بـالـقـدر، فلا يقدّم ميقاته ولا يؤخّر

### دلالة التّعبير بلفظ ﴿مَّا تَسۡبِقُ﴾، وأثره في المعنى:

لَمّا كان لفظ (سَبَقَ) إذا كانَ واقِعًا عَلَى شَخْصٍ؛ كانَ مَعْناهُ أنَّهُ جازَ، وخَلَّفَ، كَقَوْلِكَ: سَبَقَ زَيْدٌ عَمْرًا، أيْ: جازَهُ، وخَلَّفَهُ وراءَهُ،

كلُّ مَنْ ماتَ أوْ قُتِلَ فَإنَّما ماتَ بِأجَلِهِ

(1) ابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أخر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/15.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/14، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/3.

ومَعْناهُ: أنَّهُ قَصرَ عَنْهُ، وما بَلَغَهُ، وإذا كانَ واقِعًا عَلَى زَمانٍ؛ كانَ بالعَكْسِ في ذَلِكَ، كَقَوْلِكَ: سَبَقَ فُلانٌ عامَ كَذا، مَعْناهُ: مَضَى قَبْلَ إتْيانِه، ولَمْ يَبْلُغْهُ، فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾، مَعْناهُ: أنَّهُ لا يَحْصُلُ ذَلِكَ الأجَلُ قَبْلَ ذَلِكَ الوَقْتِ، فتهلك الأمَّةُ قبل بلوغ أجلِها، وما يستأخرون، أيْ: ما يتجاوزونه، ويتأخَّر الأجلُ عنهم، بَل إنَّما يَحْصُلُ في ذَلِكَ الوَقْتِ بِعَيْنِه[1].

**بلاغة سوق الكلام، بنفي السّبق والاستئخار:**

تخصيصُ كُلِّ أجلٍ بِوَقْتِهِ المُعَيَّنِ، إنَّما هو بتخصيصِ الإلهِ الواحدِ الأحدِ

لَمّا كان المرادُ إثباتَ وقوع أجلِ كلِّ أمَّةٍ في وقتِه المعيَّن؛ لم يأتِ بما يدلُّ على المعنى مباشرة، فجاء بنفي السبق والتأخير؛ ليؤذن بإثباتِ وقوعِ الأجل بعينه في الوقت المحدَّد له، وبدفع توهُّم أيِّ سبقٍ أو تأخير لأجَلِهم بما يدلُّ عليه ظاهر النَّفي وصريحه، فدَفْعُ التَّوهُّم لا يدلُّ عليه شيءٌ مثل أسلوب النَّفي، وللإشعارِ بأنَّ تخصيصَ كُلِّ أجلٍ بِوَقْتِهِ المُعَيَّنِ دونَ الوَقْتِ الَّذي قَبْلَهُ أوْ بَعْدَهُ إنَّما هو بتخصيصِ إلهٍ واحدٍ أحدٍ[2].

**فائدة مجيء ﴿مِنۡ﴾، في قوله: ﴿مِنۡ أُمَّةٍ﴾:**

تأكيد استحالة سبقِ أيِّ أمَّةٍ أجلها أو تأخيره

لَمّا كان حرف الجر ﴿مِنۡ﴾ يفيد النَّصَّ على استغراق الجنس؛ دلَّ على أنَّ لفظَ الأمَّة يشمل أفراد أمم القرى المهلكَة وغيرهم، كما أفاد الحرفُ تأكيد نفي السبق وتأخيره[3].

**نكتة الإسناد إلى (الأمَّة) دون (القرية):**

لا غلبةَ لأيِّ جمعٍ لأجلِه، مهما بلغت قوّته، وكثرت عدّته

قوله: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾، أُسنِدَ الفعلان ﴿تَسۡبِقُ﴾، ﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ إلى الأمَّة، بعد إسنادِ الإهلاكِ إلى القرية؛ لأنَّ السياق في بيان أنْ لا غلبة لأيِّ جمعٍ، وإنْ كان قويًّا بحيث يستطيع

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/542، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/120.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/120، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/541، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/466.

أنْ يسبق أجله، أو يَسْتَأْخِرَ عنه، فناسب مجيء لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾ هنا لِما يدلُّ عليه اللَّفظ من معنى الاجتماع والقوَّة وكونهم على أمرٍ واحدٍ يجتمعون عليه[1]، فالسبقُ والاستئخارُ وصفٌ للأمَّةِ دون القرية مع ما في لفظِ الأمَّة من العموم لأهل تلك القرى وغيرِهم ممن أُخِّرت عقوباتُهم إلى الآخرة[2].

### سرُّ إيثار التَّعبير بقولِه: ﴿أَجَلَهَا﴾ في السّياق:

مناسبةُ كلِّ لفظٍ لسياقِه في القرآن، من بليغ البيان

لم يَقُلْ: (ما تسبق مِنْ أمَّةٍ كتابَها المعلومَ) كما في الآية السابقة، ونكتته هي أنَّه لّمّا قال: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ﴾؛ اقتضى ذكرُ السَّبقِ إيرادَ لفظِ الأجلِ، فكان إيرادُ الأجلِ - الذي هو غايةُ الوقتِ للشَّيءِ أو هو المدَّةُ المضروبةُ للشَّيء - باعتبار ما يقتضيه من السَّبق في الوقتِ كما أنَّ إيرادَه بعنوان الكتابِ المعلوم باعتبار ما يوجبه من الإهلاك[3]، كما أنَّه لّمّا كان الكلام على غاية الوقت لكلِّ أمَّة وتعيين وقتِ إهلاكِها وتحديده من غيرِ أنْ تسبقَ الأمَّةُ أجلها أو تَسْتَأْخِرَ عنه ناسب ذكر الأجل.

### نكتة إيثار صيغة الاستفعال: ﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾:

النَّفسُ بطبيعتِها تشتهي تأخير الأجل وتكره سبقَه، وقدر الله هو الفيصل

عُبِّرَ بصيغة الاستفعال؛ للإشعار بعجزهم عن الاستئخار مع طلبهم له بما تدلُّ عليه السين والتّاء، مع دلالتها على تأكيد طلبهم، إشعارًا بأنَّ النَّفسَ بطبيعتِها تشتهي تأخير الأجل وتكره سبقَه[4].

### سرّ ورود صيغة المضارع ﴿تَسۡبِقُ﴾، و﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾:

دوامُ نفي السَّبقِ والاستئخارِ فيما بين الأمم الماضية والباقية

قوله تعالى: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾، أوثِرَتْ صيغةُ المضارعِ في الفعلين بعد ما ذُكر نفيُ الإهلاكِ بصيغة الماضي؛

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أمم).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66، والبروسويّ، روح البيان: 4/443، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/15.

لأنَّ المقصودَ بيانُ دوامِ نفي السَّبْقِ والاسْتِئْخارِ فيما بين الأممِ الماضيةِ والباقية في أجلِها الذي أجِّلت له[1].

### سبب تقديم نفي السّبق، على عدم التأخُّر:

قُدِّمَ نفي السبقِ على عدمِ التَّأخر مع كون المقام مقامَ المبالغةِ في بيان تحقُّق عذابِهم؛ لأنَّ السَّبقَ مقدَّمٌ في الوجود على التَّأخُّر، ولأنَّ المرادَ بيانُ أنَّ سرَّ تأخيرِ عذابِهم مع استحقاقهم لذلك هو أنَّهم لا يسبقون أجلهم، فلا تأخيرَ في أجلِهم كما قد يتوهَّمُ.

سرُّ تأخيرِ عذابِ الكافرين، هو أنَّهم لا يسبقون أجلهم

### بلاغة التَّغليب في قولِه: ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾:

لَمّا كان لفظ أمَّة مؤنَّثًا، وجاء الفعل على نسقه، في قولِه: ﴿مَّا تَسۡبِقُ﴾؛ كان إيراد الفعل ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ باقترانه بضمير جماعة الذكور على تغليب الرِّجالِ في ما يتضمَّنه لفظ الأمَّة، فيكون الفعل ﴿تَسۡبِقُ﴾ قد حُمِلَ على لفظ الأمَّة؛ لأنَّه مؤنَّثٌ، و﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ حُمِلَ على المعنى؛ لأنَّ طلبَ استئخار العذاب لا يَقْدِرُ عليه إلّا من له قوَّة وشأن، فأُشيرَ إلى رجالِ الأمَّة، بمعنى لا يستطيع الأمرَ أيُّ أمَّةٍ، وإنْ كان الطالبون للأمر لديهم القوَّةُ وأسبابُها، كما أنَّ فيه رعايةً لِلفواصلِ، ولهذا لم يَقُلْ: (ما تسبق من أمَّة أجلها وما تستأخر)[2].

تحصيل الأمم للقوَّة وأسبابِها، لا يؤخِّرُ أجلَها

### سرّ حذف متعلِّق الفعل، في قولِه: ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾:

تقدير الكلام: (وما يستأخرون عنه) فحُذِفَ الجارُّ والمجرور (عنه)؛ لأنَّه معلوم من السّياق، ففيه إيجازٌ ولِمراعاةِ الفواصل[3].

الإيجاز ومراعاة الفاصلة من عادةِ القرآن في البيان

### توجيه المتشابه اللّفظيّ:

قال الله تعالى في سورة الحِجر: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾، وقال في سورة الأعراف: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/84، والواحديّ، التفسير البسيط: 12/542، والزّمخشري، الكشاف: 2/571، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/66.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/571، والسّمين الحلبيّ، الدر المصون: 7/143.

تــقـــديـــم الاســتــئــخـــار لــبــيـــان عـــدمِ خـــلاص الأمــم مــن الــعــذاب، وتــأخــيره لبيان ســـرِّ تــأخــير إهلاكِهم

أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: 34]، وفي سورة النَّحل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النّحل: 61]، وسرُّ تقديم الاستئخار في سورة الأعراف وسورة النحل هو أنَّ المقصودَ بالذات بيانُ عدمِ خلاصِهم من العذاب، وأمّا ما في سورة الحِجر في قولِه تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ من سبق السبق في الذكر، فلِأنَّ المراد بيانُ سرِّ تأخيرِ إهلاكِهم مع استحقاقهم له، حسبما ينبئُ عنه قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، فالأهمُّ هناك بيانُ انتفاءِ السَّبْق، فقُدِّم لمناسبةِ المقامِ[1].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.